

بنية التوتر في قصيدة "عنب الرماد" للشاعرة ربيعة جلطي

أ/ آقضي نوال

جامعة - ورقلة -

مدخل:

يعتبر التركيز على بنية التوتر وليد الحلم المحموم الذي يراود الشاعرة في القصيدة، ولعله ترجمان للعواصف التي تطوق الواقع والأمواج المعرفية للذات. إنه حصار العالم المعيشي الذي يدفع للاستحمام بمياه الشعرية لذلك وجب الوقوف على العتبات الدلالية في القصيدة .

عتبة العنوان :

يشكل العنوان في قصيدة عنب الرماد أيقونة رئيسة تتجاوب مع فاعلية القصيدة؛ ولأن مسائلة العنوان في توجيه القراءة أصبحت من الضرورة، ذلك لأنه بمثابة «الرأس للجسد»⁽¹⁾ كما أنه « شديد الفقر على مستوى الدلائل ، وأكثر غنى منه (من النص)على مستوى الدلالة». ⁽²⁾

وينفتح عنوان عنب الرماد على مؤشري "العنب والرماد" ، ويتركب من خبر لمبتدأ محذوف تقديره هذا ومضاف إليه . والإضافة تظهر أن العنب بعض من الرماد لأن هناك حرف جر فاصل بين المضاف والمضاف إليه ، وبغيابه عن البنية السطحية يتوتر السياق .

ولجوء الشاعرة إلى المضاف إليه محاولة لمعرفة ذاتها بملاحظة ثمرة العنب غير أن هذه الثمرة تلتصق بالرماد وهو الحطام المترجم للإحساس العميق بهوية هذا العنب.

(1) محمد مفتاح : دينامية النص تنظير وإنجاز ، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ط1، 1990، ص72.

(2) محمد فكري الجزار : العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي، الهيئة المصرية للكتاب ، مصر ، ط1، 1998، ص23.

الرماد هو بقايا لنار قد ألهبت كيان الشاعرة وفي اللهب احتراق وثمررة بقايا الاحتراق تضيء التوتر المتنامي عبر مدرات القصيدة .

تقول الشاعرة:

سارية فوقها النار والحطب

على كتفي الزيوت

وعليها الشهب الحارقة.

سارية⁽¹⁾

الانقلاب ينتج رمادا يبقى صورة طافية على سطح القصيدة ناطقة ترشد القارئ إلى مدلولها.

وتأتي اللوحة اللونية نتيجة حتمية لدوال العنونة إنها تجمع بين ثلاثية الأسود والأبيض والأزرق والتي تتبنى الرمادي نتاجا لها لتلمس هموم الحياة وتجاعيدها. فإذا كان البياض رمز لكل ما هو جميل فامتزاجه بالسواد « المرتبط في حد ذاته بالرماد المتخلف عن الحريق»⁽²⁾ هو بمثابة «لا المضادة لنعم»⁽³⁾ أي لافتة منددة بالصمت وداعية للرفض ناقمة على هذا الوجود.

الضدية اللونية ترجمان لهذا التوتر السابح في عمق النص والمتأفف من أبجديات العصر. أما اختيار الأزرق محاولة للاستحمام من عوالم التوتر والاضطراب وبحث عن الاتزان.⁽⁴⁾

لا تغيب الفاكهة عن العنوان إلا وتظهر في المتن بهوية أخرى إذ يتحول العنب إلى تفاح، وكأن الشاعرة تمارس نوعا من اللعب والمراوغة، فتغير الصورة الذهنية لدى المتلقي وتكسر أفق توقعاته تاركة فجوة توتر فاصلة بين الصورتين ، لكن سرعان ما تكشف تقاربهما في المعادلة اللونية والذوقية والوظيفية (تنشيط الجسم والمساعدة على الهدوء ومنع الإحساس بالتوتر).

تقول الشاعرة :

(1) ربيعة جلطي: ديوان من التي في المرأة، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر ، دط، 2003، ص20.

(2) أحمد مختار عمر: اللغة واللون، عالم الكتب، القاهرة ، ط2، 1997، ص201.

(3) م ن، ص195.

(4) ينظر المرجع نفسه، ص198.

يدك مروج الشمال

تفاحها، أبقارها ومالها

وقطاراتها والأشواق،⁽¹⁾

أما ظل العنوان الأخير فهو في استحضار الحيوان المتوافق مع مدلوله (العنوان)
(الذئب - الأفعى - الطير - الهدهد).

تخبأ الشاعرة الطير خلف العمى إذ تقول:

وحش، طائر متبخر،

ملتو

أعمى⁽²⁾

إن العمى المنسوب للطير صفة دائمة لدى الأفعى الملتصقة بالأرض ووضعها في إطار واحد هو ربط للذات بالانفصام والتمزق الموحش وقذف بها في صحراء الموت. الذئب يحمل اللون الرمادي ويعبر عن الواقع الصعب المصارع للذات في حين يظل الهدهد رمزا للكشف عن خفايا المرأة (قصة بلقيس) لذلك يرتبط بالمحنة:

يا هدهد المحنة،

تتماسك بالكاد عن غناء

أم البكاء !⁽³⁾

لأن المحنة تلتصق بالبكاء على هذا الزمن الطاعن للروح والمغير للجمال والمثير للقلق. هكذا يفرز التواصل بين العنوان والحيوان طيرا أعمى وذءبا خشبي وهدهد محنة.

- توتر المضمون:

تتخذ الشاعرة من بنية التوتر محورا تلتفت حوله القصيدة، غارقة في بركة الانفعالات الناشئة عن التناقضات الضدية التي «تعد ذات أهمية في خلق الشعرية من كونها

(1) ربعة جلطي: ديوان من التي في المرأة، ص22.

(2) ربعة جلطي: من التي في المرأة، ص20.

(3) م ن، ص23.

مصدرا للفقوة: مسافة التوتر»⁽¹⁾ إنها تحاول لفظ مستنقعات الواقع، فالصراعات الحياتية تجد تقوبا تنتفس من خلالها داخل البنية النصية.

تبدأ القصيدة بقول الشاعرة:

بين الجوانح غضب

غضب بين الجوانح

غضب. (2)

إذ تجرح البنية بتخدير عصب الجملة وانزلاق المفصلات، فالجملة الظرفية تتأخر بعدما كانت مقدمة.

خبر محذوف + مبتدأ مؤخر

مبتدأ محذوف + خبر

فلعبة الوجود والعدم ظاهرة في البنية اللغوية، وتشويش الرتبة يعد توترا. وحين تعالج البنية الدلالية للمقطع تجد تسربات الغضب إلى الجوانح أقوى في الجملة الأولى للاعتناء بالدواخل (بين الجوانح)؛ أي أن الغضب احتل الجوانح واستوطن بينها في حين يعد الغضب في التركيب الثاني ومضة غازية حاليا ثم يتأكد غزوه أخيرا في قول الشاعرة: غضب.

و انطلاقا من البنية التكرارية يتضح تأكيد التوتر؛ لأن الإعادة دليل اضطراب وبما أنه (التكرار) «المفتاح الذي ينشر الضوء على الصورة لاتصاله الوثيق بالوجدان»⁽³⁾ فالاستجابة لها تكون فعالة؛ لأنها محفورة في الذاكرة الذهنية.

فتكرار وتواتر إشارة الغضب عبر منحى القصيدة يسقط مطرا باكيا عبر سطورها فتأقيه محقونة بإبر الحركة المتسارعة، إنها اللفظة المحورية التي تتأسس عليها البنية التواترية وتتمفصل عندها باقي المدلولات وتتجاوب إليها لتتلاقح معها مستمدة منها الحركة والتوثب والنهوض؛ وهي رمز للتجديد ورايط بين متناقضين، فالبنية الاسمية دالة على الثبات ومدلولها مع تكرارها دالين على النهوض والثورة والاشتعال.

(1) بسام موسى قطوس: إستراتيجية القراءة، التأصيل والإجراء النقدي، دار الهدى للنشر

والتوزيع، الجزائر، ط1، 2002، ص147

(2) ربيعة جلطي: من التي في المرأة، ص19.

(3) مصطفى عبد الرحمن: ظاهرة التكرار في الفنون الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د ط، 1998، ص11.

وربما يكون الغضب رمزا للتغير والرفض والابتعاد عن طابع الوجود الإنساني، أو قل هو بريد اللاشعور أين تبوح الذات برواسبها ومن هذا يمكن القول أن القصيدة تفرغ لمتعلقات الزمن.

تقول الشاعرة :

جبل يقترّب من المدى متعثرا

ينفتت في يدي

(1) جبل

إن اقتراب الجبل المتماسك الراسي يعبر عن ثبات واستقرار، لكن تعليقه على مشجب التعثر يجسد درجة حرارة التوتر فنفوح رائحة الانهيار «هكذا ما إن يتم إسقاط حالة الثبات ... حتى تبدو الحالة الثابتة متوترة مما يؤدي إلى نشوء توازن بين الحركة الكامنة والمقاومة»⁽²⁾ هذا التوازن يتوقف عند الجوهر الوجودي للإنسانية

ينفتت في يدي⁽³⁾

و يؤدي إلى محاولة لاستبطان العمق الإنساني والبحث عن خفايا الوجود. ويلعب التضاد دور المضخة التي تبرهن على الحضور والرفض ومحاولة التغيير.

تقول الشاعرة :

ذئب من خشب

يعوي،

في مغطسه يمسح أفعى

زجاج أسود في رأسي ينشطر

ذئب⁽⁴⁾

تتحول الروح إلى مادة وتهرب الألوان من أثوابها، وتستحيل الأشياء شظايا محطمة وينكسر نظام الجاذبية الأرضية موقعا وثيقة الحالة النفسية التي تعيشها الذات . إنها بؤرة التآزم والتنقل بين جسور الغربية والضياح.

(1) رببعة جلطي :من التي في المرأة ،ص19.

(2) محمد علي الكندي : الرمز والقناع في الشعر العربي الحديث (السياب ونازك

والبياتي) دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت ،لبنان ،ط1، 2003 ،ص346

(3) م ن ،ص19.

(4) رببعة جلطي : من التي في المرأة ،ص19.

وهو ما يولد طاقة انفجارية صارخة (غضب - يعوي - الجارف - رعد - ملع - ارتابه - ملتو - زلزلة) طاقة نابغة أيضا عن ترسانة الصورة الفنية التي «تسمح ... باستقطاب الواقع المعاصر في طبقاتها لخبفية ودلالاته الغامضة» . (1)

تقول الشاعرة:

سارية فوقها النار والحطب

على كتفي الزيوت

وعليها الشهب الحارقة ..

سارية

في الهاوية ظلي خببا

ظلي في الهاوية

أمامه رعد جهنمي ،ملع، أرتابه،

غضب

وحش، طائر متبخر،

ملتو

أعمى (2)

إن الطاقة الاسمية لها ميزتها في تجسيد مترادفات الحياة، فتهد السارية واضح يضرب السكون بسيفه وينشر الحركة التي تولد مع السكون والقبطية المتجاذبة تلامس الدال والمدلول، فينبش قبر العدم بحثا عن الوجود . إنه غضب يبحث عن وتد اليقين ويريد تمزيق بردة النمط المعاش

وإلى جانب تلك الطاقة تضيف الشاعرة متتالية عديدة من الأفعال المضارعة التي تزيد من حدة الانفعال والتوتر وتبرهن عن رغبة في التحرر من تبعية الواقع المشؤوم، إنها تصنع مرفوضات الذات وتأفها؛ كونها محرومة من لذة الوجود بسبب الإقامة الجبرية للتعفن والعيشية . و ذلك يشكل استخلاصا مفاده أن النص يجمع بين متناقضات تحقق أرضية يخرج منها التنوع الدلالي المكثف.

(1) إبراهيم رماني: الغموض في الشعر العربي الحديث، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، ص258.

(2) ربيعة جلطي: من التي في المرأة، ص20.

ويلحظ القارئ اضطراب في البنية الدلالية لهذه الأفعال (يقترَب - يهرب -
 ينفَتَت - ينشطر - يتماسك) وهذا التضاد الفعلي يربط الأنساق ربطا متجانسا يتجاوز
 النمط المؤلف، إنه يصنع لعبا دلاليا ومراوفا.

هذا التفجير الدلالي للحركة يجعل الأفعال تطفو على السطح في بنية موحية
 متواليية ارتمت الشاعرة بين ذراعي (الميم)
 لتغمر ذاتها بتلك الحرارة الناجمة عن الانضمام مواجهة مناشير السقوط والانهيال دون أن
 تسقط من ذاكرتها ألم الحفر والانشقاق الذي أحدث هذا التهدم (ب) كما حاولت البروز (أ)
 بوجه آخر إنه النهوض والتماسك والاستقرار للبعث المتجددو الفكك من قبضة الزمن (ي
 - ل - ر)

تلك آثاره،

ساقط على كون من الغبار

أو حطام نجم ،

غضب

في انجرافه هلع جاف

أم فجأة الكسوف الأزرق

أم تقاطيع الزلزلة؟! (1)

فالإشارات (التساقط - الحطام - الغبار - الزلزلة - الانجراف) تجسد مناخا
 محبطا يهرب فلسفتها الحياتية من ركام فلسفة تقف على دالين الأول الغضب (التغير
 والثورة) والثاني الانهيال (الاستسلام) وتلك بنية توتر تتكئ على نظام الحياة الموشح
 بالأوجاع والمرصص بصراع الذات في سبيل النهوض والاستعلاء .

والتوتر يشهد على قطار الزمن العائد للخلف والمغاير للقيم لكن الشاعرة تحاول
 تمزيق الأقمطة والأكفان لتتابع التدافع والانسحاب إذ تقول:

غضب ،

يدك مروج الشمال

تفاحها ،أبقارها ومالها

وقطاراتها والأشواق ،

(1) المصدر السابق، ص21.

يهرب الثلج من بياضه

والبحر من مياهه

إلى الجحيم من جنه. (1)

إنه البحث عن تشكيل هوية جديدة تخالف المألوف وتهرب من أسر أسوار التقليدية والاستناد إلى سلطة القرار بإعلان الرفض ورفع لافتة اللا قبول مبتغى الشاعرة لذلك تطعم النص بحمولة مكانية تنقل كاحله وتمثل الذاكرة التي تتعايش مع الحاضر (الأفعال المضارعة).

و الصراع الكامن تحت قشور المكانية يشكل حركة داخلية مرتدة من السلب والإيجاب، مزيجة الستار عن تناقضات الزمان الصدى.

وهذا ما يرفع نبض النص فيتنامي ويتقدم إلى مشارف الخاتمة.

تقول الشاعرة:

يا قلبي

يا طائر الحديد أو المطر،

يا هدهد المحنة،

تتماسك بالكاد عن غناء

أم البكاء !

طعنة طعنة

غضب أحمق، أحمق

عليه، أم علي

علي، أم عليّة اللعنة؟! (2)

إنها قوة فاعلة (غضب) وذات منفعة (الإنسان) وتوتر جامع بين القوى المحركة والمعيقة فالخطاب ينتقل من النقيض إلى النقيض ويعرض التوتر الحاصل بينهما؛ لذلك ظهرت البنية التساؤلية في الخاتمة

علي، أم عليّة اللعنة؟! (3)

(1) ربيعة جلطي : من التي في المرأة، ص 22.

(2) المصدر السابق، ص 23.

(3) م ن، ص 23.

لتبعث شرارا من القلق الذي يجتاح الذات المهدهدة ولتنبه القارئ أن العيب ليس في زمانه فحسب ولكنه متصل بذاته أيضا .

إن الوقوف على بنية التوتر فسح المجال للنتاج الآتي :

- المفارقة في القصيدة تبوح بجدل الواقع والذات.
- إن الشاعرة لها فضاء خصوصي تتطلق منه وتعود إليه لتثبت أصالتها.
- استخدام الأصوات المجهورة يبرز حالة التأزم التي تصيب الذات .
- تناسل الأصوات الذلقية المتميزة بالسلاسة يهدف إلى محاولة كسر البنية

التوترية

— تواري الشاعرة خلف الصورة يصعد من البنية التوترية.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- إبراهيم رماني :الغموض في الشعر العربي الحديث،ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر ،ط1
- 2-أحمد مختار عمر :اللغة واللون،عالم الكتب ،القاهرة ،ط2، 1997،ص.201
- 3-بسام موسى قطوس :إستراتيجية القراءة ،التأصيل والإجراء النقدي ،دار الهدى للنشر والتوزيع ،الجزائر ،ط2002،1
- 4-ربيعة جلطي :ديوان من التي في المرأة ،دار الغرب للنشر والتوزيع ،الجزائر ،د ط،.2003
- 5-محمد علي الكندي : الرمز والقناع في الشعر العربي الحديث (السياب ونازك والبياتي) دار الكتاب الجديد المتحدة ،بيروت ،لبنان ،ط1، 2003.
- 6-محمد فكري الجزار :العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي،الهيئة المصرية للكتاب ،مصر ،ط.1998،1
- 7-محمد مفتاح : دينامية النص تنظير وإنجاز ،المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر ،بيروت ،لبنان،ط.1990،1
- 8-مصطفى عبد الرحمن :ظاهرة التكرار في الفنون الإسلامية،الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د ط ،1998.